بنت الباشا[١]

كانت هذه المرأة وضَّاحة الوجه ، زهراءَ اللَّون كالقمر الطَّالع ، تحسبُها لجمالها غذَّتها الملائكة بنور النَّهار ، ورَوَّتها من ضَوء الكواكب .

وكانت بَضَّةً[٢] ، مقسَّمة أبدع التَّقسيم ، يلتفُّ جسمُها شيئاً على شيءٍ التفافاً هندسيّاً بديعاً ، يرتفع عن أجسام الغيدِ الحسان أفْرِغ فيها الجمال بقدر ما يمكن إلى أجسام الدُّمى العبقريَّة ؛ التي أفرِغ فيها الجمال ، والفنِّ بقدر ما يستحيل .

وكانت باسمةً أبداً كأوَّل ما يتلألأ الفجر ، حتَّى كأن دمها الغَزَليَّ الشَّاعر يصنع لثغرها ابتسامتَها ، كما يصنع لخدَّيْها حُمرتَهما .

ما لها جلست الآن تحت اللَّيل مُطْرِقةً ، كاسِفةً ، ذابلةً ، تأخذها العين فما تشكُّ : أنَّ هذا الوجه قد كان فيه مَنبع نورٍ ، وغاض ! وأنَّ هذا الجسم الظمآن المعروق هو بُقعةٌ من الحياة ، أقيم فيها مأتمٌ !

ما لهذه العين الكحيلة تذرِي الدَّمع ، وتسترسل في البكاء ، وتلجُّ فيه ، كأنَّ الغادة[٣] المسكينةَ تبصِر بين الدُّموع طريقاً تُفضي منه نفسُها إلى الحبيب الَّذي لم يَعُد في الدُّنيا ، إلى وحيدِها ؛ الذي أَصبحت تراه ، ولا تلمسه ، وتكلِّمه ولا يردُّ عليها ، إلى طفلها النَّاعم الظَّريف ؛ الَّذي انتقل إلى القبر ، ولن يرجع ، وتتمثَّله أبداً أن يجيءَ إليها ، ولا يستطيع ، وتتخيَّله أبداً يَصيح في القبر ، يناديها : « يا أمِّي ! يا أمِّي . . . » .

قلبها الحزين يُقطَّع فيها ويُمزَّق في كلِّ لحظةٍ ؛ لأنَّه في كلِّ لحظةٍ يريد منها أن تضمَّ الطِّفل إلى صدرها ، ليستشعرَه القلبُ ، فيفرح ، ويتهنَّأ ؛ إذ يَمسُّ الحياة الصَّغيرة الخارجة منه . ولكن أين الطِّفل ؟ أين حياة القلب الخارجة من القلب ؟

---

(١) انظر خبرَ هذه القصة وحديث (الزبال الفيلسوف) في « عود على بدء » من كتابنا « حياة الرافعي » . (س) .

(٢) « بضة » : بضّ البدنُ : امتلأ ونَضَر ، وكان رقيق الجلد ناعماً في سِمَن .

(٣) « الغادة » : الفتاة الناعمة اللينة .

لا طاقة للمسكينة أن تجيب قلبها إلى ما يطلب ، ولا طاقة لقلبها أن يَهدأ عمَّا يطلب ، فهو من الغيظ ، والقهر يحاول أن يُفجِّرَ صدرها ، ويريد أن يَدقَّ[1] ضلوعها ؛ ليخرج فيبحث بنفسه عن حبيبِه !

مِسكينة تترنَّح ، وتتلوَّى تحت ضرباتٍ مُهلكةٍ من قلبها ، وضرباتٍ أخرى من خيالها ، وقد باتت من هذه وتلك تعيش في مثل اللَّحظة الَّتي تكون فيها الذَّبيحة تحت السِّكين ، ولكنَّها لحظةٌ امتدَّت إلى يوم ، ويومٌ امتدَّت إلى شهرٍ . يا ويلها من طول حياة لم تَعُدْ في آلامها ، وأوجاعها إلاَّ طول مدَّة الذَّبح للمذبوح .

ولو كان للموت قطارٌ يقف على محطَّةٍ في الدُّنيا ؛ ليحمل الأحباب إلى الأحباب ، ويسافر من وجودٍ إلى وجودٍ ؛ وكانت هذه الأمُّ جالسةً في تلك المحطَّة منتظِرةً ، تتربَّص ، وقد ذُهلت عن كلِّ شيءٍ ، وتجرَّدت من كلِّ معاني الحياة ، وجمدت جمود الانتقال إلى الموت ؛ لما كانت إلا بهذه الهيئة في مجلسها الآن في شرفتها من قصرها ؛ تطلُّ على اللَّيل المظلم ، وعلى أحزانِها . . !

* * *

هي فلانة بنت فلانٍ باشا ، وزوجة فلان بك ، ترادفتْ النِّعم على أبيها فيما يَطلب ، وما لا يطلب ، وكأنَّما فرَغ من اقتراحه على الزَّمان ، واكتفى من المال ، والجاه ، فلم يُعجب الزَّمان ذلك ؛ فأخذ يقترح له ، ويصنع ما يقترح ؛ ويزيده على رَغمه نِعَماً تتوالى !

وكان قد تقدَّم إلى خِطبة ابنته شابٌّ مهذَّب ؛ يملك من نفسه الشَّباب والهمَّة ، والعلم ؛ ومن أسلافه العنصر الكريم ، والشَّرف الموروث ، ومن أخلاقه ، وشمائله ما يُكاثرُ به الرِّجال ، ويُفاخر . بيد أنَّه لا يملك من عيشه إلا الكفافَ ، والقلَّة ، وأملاً بعيداً كالفجر وراء ليلٍ لا بدَّ من مُصابرتِه إلى حين يَنبثِقُ النُّور .

وتقدَّم صاحبُنا إلى الباشا ، فجاءه كالنَّجم عارياً ، أي : في أزهَى نورانيَّته ، وأضْوئها ، وكان قد علقَ الفتاةَ ، وعَلِقته ، فظنَّ عند نفسه : أنَّ الحبَّ هو مال الحبِّ ، وأنَّ الرُّجولةَ هي مالُ الأنوثة ، وأنَّ القلوبَ تتعامل بالمَسرَّات ،

(١) « يدق » : يكسر .

لا بالأموال ، ونسِي : أنَّه يتقدَّم إلى رجلٍ ماليٍّ جعلته حَقارةُ الاجتماع رُتبةً ، أو إلى رتبةٍ ماليَّة جعلتها حقارة الاجتماع رجلاً . . . وأنَّ كلمة « باشا » وأمثالها ، إنَّما تخلَّفَت عن ذلك المذهبِ القديم ؛ مذهب الألوهيَّة الكاذبة ؛ التي انتحَلها فِرعونُ ، وأمثالُه ، ليتعبَّدوا النَّاس منها بألفاظِ قلوبهم المؤمنة ، فإذا قيل : « إلـه » كان جواب القلب : « عزَّ وجلَّ » ، « سبحانه . . . » .

ولمَّا ارتقى النَّاسُ عن عبادة النَّاس ، تطفتْ[١] تلك الألوهيةُ ، ونزلت إلى درجاتٍ إنسانيَّةٍ ، لتتعبدَ النَّاسَ بألفاظِ عقولهم السَّاذجة ؛ فإن قيل « باشا » كان جوابُ العقل الصَّغير : « سعادتلو أفندم[٢] » ! .

نسِي الشَّابُّ : أنَّه « أفندي » سيتقدَّم إلى « باشا » ، وأعماه الحبُّ عن فرقٍ بينهما ، وكان سامي النَّفس ، فلم يُدرك : أنَّ صغائر الأمم الصَّغيرة لا بدَّ لها أن تنتحلَ السَّميَّ[٣] انتحالاً ، وأنَّ الشعبَ الذي لا يجد أعمالاً كبيرة يتمجَّد بها ، هو الذي تُختَرَعُ له الألفاظُ الكبيرة ؛ ليتلهَّى بها ، وأنَّه متى ضعف إدراك الأمَّة ؛ لم يكن التفاوتُ بين الرِّجال بفضائل الرُّجولة ، ومعانيها ، بل بموضع الرُّجولة من تلك الألفاظ ، فإن قيل : « باشا » فهذه الكلمة هي الاختراعُ الاجتماعيُّ العظيم في أمم الألفاظ ، ومعناها العلميُّ : قوَّة ألف فدان ، أو أكثر ، أو أقلَّ ، ويقابِلها مثلاً في أممِ الأعمال الكبيرة لفظُ « الآلة البخاريَّة » ، ومعناها العلمي : قوَّة كذا وكذا حصاناً ، أو أقلَّ ، أو أكثر[٤] ! .

نسِي هذا الشَّاب : أنَّ « أمم الأكل والشُّرب » في هذا الشرقِ المسكين ، لا تتمُّ عظمتُها إلا بأن تضع لأصحاب المال الكثير ألقاباً هي في الواقع أوصافٌ اجتماعيَّةٌ للمعدة التي تأكل الأكثر ، والأطيب ، والألذَّ ، وتملك أسبابَ القدرة على الألذِّ ، والأطيب ، والأكثر .

---

(١) « تطفت » : رَسَتْ .

(٢) هذه ألقاب وضعتها الدولة العثمانية البائدة ، فأفسدت الناسَ بكبرياء الألفاظ الفارغة ، وقد أرادتْ بها رَفْع الأعلى ، فانتهى أمرُها إلى سقوط الأعلى والأسفل . (ع) .

(٣) « السمي » : جمع سماء ، وهو اسم لكل ما ارتفع وعَلاَ .

(٤) انظر مقالة (البك والباشا) في الجزء الثاني . (ع) .

وتقدَّم (الأفندي) يتودَّد إلى (الباشا) ما استطاع ، ويتواضع ، وينكمش ، ولا يألوه[١] تمجيداً ، وتعظيماً ؛ ولكن أين هو من الحقيقة ؟ إنَّه لم يكن عند الباشا إلا أحمق ؛ إذ لم يعرف أن تقدُّمَه إلى ذلك العظيم كان أول معانيه : أنَّ كلمة « أفندي » تطاولت إلى كلمة « باشا » بالسَّبِّ علناً . . . !.

* * *

وانقبضوا عن (الأفندي) وأعرضوا عنه إعراضاً كان معناه الطرد ، ثمَّ جاء (البك) يخطب الفتاة .

و« بك » مَنبهةٌ للاسم الخاطب ، وشرفٌ ، وقدرٌ ، وثناءٌ اجتماعيٌّ ، وذِكرٌ شهير ، وإرغامٌ على التَّعظيم بقوَّة الكلمة ، ودليلٌ على الحُرمات اللازمة للاسم لزومَ السَّواد للعين ، ولو لم يكن تحت (بك) رجلٌ ، فإنَّ تحتها على كلِّ حال (بك) . . . ! وأنعمَ له الباشا ، ووصل يَدَه بيد ابنته ! فألبسها ، وألبسته : وأعلمها أبوها : أنَّه قد فحص عن البك فإذا هو (بك) قوَّة مئتي فدَّان . . ! أمَّا الأفندي فظهر من الفحص الهندسيِّ الاجتماعيِّ : أنَّه (أفندي) قوَّة خمسة عشر جنيهاً في الشَّهر . . . !.

وخَنسَ[٢] الأفندي ، وتراجعَ مُنخزلاً[٣] ، وقد علم : أنَّ (الباشا) إنَّما زوَّج لقبه قبل أن يزوِّج ابنته ، وأنَّه هو لن يملك مهرَ هذا اللَّقب إلا إذا ملك أن يُبدِّلَ أسباب التَّاريخ الاجتماعيِّ في الأمم الضَّعيفة ، فينقلَ إلى العقل ، أو النَّفس ما جعلته « أمم الأكل والشُّرب » من حقِّ المعدة ، فلا يكون (باشا) إلا مخترعاً شرقيّاً مُفلساً ، أو أديباً عظيماً فقيراً ، أو من جرى هذا المجرى في سموِّ المعنى لا في سموِّ المال .

وقدَّمت مِئتا الفدان مَهرها « الطِّينيَّ » العظيم بما تعبيرُه في اللُّغة الطِّينيَّة : ثمنُ عشرين ثوراً ، ومثلِها جاموساً ، ومثلِها بغالاً ، وأحمرة[٤] ، وفوقها مئة قنطارٍ

---

(١) « لا يألوه » : ألا في الأمر : قصَّر فيه ، وأبطأ . يقال : ما ألوتُ جُهْداً ؛ أي : لم أَدَعْ جُهْداً .

(٢) « خنس » : انقبض وتأخر ، أو رجع .

(٣) « منخزلاً » : انخزل فلان عن الأمر : ارتدَّ ، وضَعُف .

(٤) « أحمرة » : جمع حمارة .

قطناً ، ومئة إِرْدَبٍّ[١] قمحاً ، ثمَّ ذرةً ، ثمَّ شعيراً . والمجموعُ الطِّينيُّ لذلك ألفُ جنيه . وعزَّى الباشا : أنَّه مستطيعٌ أن يقول للنَّاس : إنَّها خمسة آلاف ، اختزلتها الأزمة قبحها الله . . !

ثمَّ زُفَّت « بنت الباشا » زفافاً طينيّاً بهذا المعنى أيضاً ، كان تعبيره : أنَّه أنفق عليه ثمن ألفِ قنطارٍ بصلاً ، ومئةِ غرارةٍ[٢] من السَّماد الكيماويِّ ، كأنَّما فرِش بها الطَّريق . . . !

وطفقَ الباشا يُفاخر ، ويتمدَّح ، ويتبذَّخ[٣] على الأفندي ، وأمثالِ الأفندي بالطِّين ، ومعاني الطِّين ؛ فردَّت الأقدار كلامَه عليه ، وجعلت مَرْجِعَه في قلبه وهيَّأت لبنت الباشا معيشةً « طِينيَّةً » بمعنى غيرِ ذلك المعنى . . .

* * *

ومات الطِّفلُ ، فردَّت هذه النَّكبة بنتَ الباشا إلى معاني انفرادِها بنفسها قبل الزَّواج ، وزادتها على انفرادها الحزنَ ، والألم ، وألقت الأقدار بذلك في أيَّامها ، ولياليها التُّراب ، والطِّين .

ولجَّ الحزن ببنت الباشا ، فجعلت لا ترى إلا القبرَ ، ولا تتمنَّى إلا القبر تلحق فيه بولدها ، فَوَضَعَتِ الأقدارُ من ذلك في روحها معنى الطِّين ، والتُّراب .

وأسقمَ الهمُّ بنت الباشا ، وأذابها ؛ فنقلت الأقدار إلى لحمها عَملَ الطِّين ، في تحليله الأجسامَ ، وإذابتِها تحت البِلى .

* * *

وكان وراء قصرها حِواء[٤] يأوي إليه قومٌ من « طين النَّاس » بنسائهم ، وعيالهم ؛ وفيهم رجلٌ « زبَّالٌ » له ثلاثة أولاد ، يراهم أعظم مفاخرِه وأجملَ آثارِه ؛ ولا يزال يرفع صوته متمدِّحاً بهم ، ويخترع لذلك أسباباً كثيرةً لكي يسمعَه جيرانه

---

(١) « إردب » : مكيال ضخم يسع أربعة وعشرين صاعاً .
(٢) « غرارة » : كيس كبير من الخيش ونحوه تُوضَع فيه الحبوب .
(٣) « يتبذخ » : بَذَخَ الرجلُ : فَخَر فتعالى في فخره .
(٤) « الحِواء » : جماعة من البيوت كهذه العشش ؛ التي تسكنها الصَّعايدة في بعض الأحياء . (ع) .

كلَّ ليلةٍ مُفاخراً ، مرَّةً بأحمد ، ومرَّةً بحسن ، ومرَةً بعليٍّ ، وأعجبُ أمرِه : أنَّه يرى أولاده هؤلاء متمِّمين في الطَّبيعة لأولاد « الباشوات » وهو يحبُّهم حبَّ الحيوان المفترس لصغاره : يرى الأسدُ أشباله هم صنعة قوَّته ، فلا يزال يَحوطهم ، ويتمِّمهم ، ويرعاهم ، حتَّى إنَّه ليقاتلُ الوجودَ من أجلهم ؛ إذ يشعر بالفطرة الصَّادقة : أنَّه هو وُجودهم ، وأنَّ الطبيعة وهبتْ له منهم مَسَرَّاتِ قلبه ، ذلك القلب الذي انحصرت مسرَّاته في النَّسل وحده ، فصار الشُّعورُ بالنَّسل عنده هو الحبُّ إلى نهاية الحبِّ . وكذلك الزَّبالُ الأسد(١) .

ومن سخرية القدر أنَّ زبَّالنا هذا لم يسكن الحِواء إلا في تلك الليلة التي جلست فيها بنت الباشا على ما وصفْنا ؛ وفي ضلوعها قلبٌ يُفتِّتُ من كبدها ، ويُمزِّق من أحشائها .

وبينا تناجي نفسها ، وتعْجَبُ من سخرية الأقدار بالباشا ، والبك ، وتستحمِقُ أباها فيما أقدم عليه من نبذ كفئها لعجزه عن مهرِ باشا ، وإيثارِ هذا المهر الطِّينيِّ ، وتباهيه به أمام النَّاس ، واندرائه بالطَّعن على من ليس له لقبٌ من ألقاب الطِّين بينا هي كذلك إذا بالزَّبال كانِس التُّراب والطِّين يهتف في جوف الليل ، ويتغنَّى :

يــا ليــلْ ! يــا ليــلْ ! يــا ليــلْ ! مـــا تنْجلـــي يـــا ليـــلْ !

* * *

القَلـــب آهُـــو راضـــي لَـــكْ حمـــدِي يـــا ربـــي
مـــن الهمـــومْ فـــاضـــي افـــرحْ لـــي يـــا قلبـــي

* * *

يـــا دُوب كِـــدا يـــا دوبْ زَيِّ الحَمـــامْ عـــايـــش

---

(١) هذا الزبال شخصية حقيقية ، لو قلنا بمذهب الرجعة لكان « أرسطو » رجع زبالاً ليتمم فلسفته ، والكاتبُ يعرفُ الرجلَ ويبرُّه أحياناً ، وكان(حضرتُه) قد طلب إلينا أن نضع له (موَّالاً) يتغنى به في (أوقات الصفاء) ، فوضعنا له الأغنية التي يراها القارىءُ بَعْدُ ، وهو يصدحُ بها في لياليه . وسنفردُ لزبالنا هذا مقالاً خاصاً إن شاء الله . (ع) .
قلتُ : وانظرْ حديثَنا عن هذا الزبال في (عود على بدء) من كتابنا : « حياة الرافعي » . (س) .

ما يمْتِلِك غِير توبْ طُول عمرُه فِيه نافِش
يا ليلْ ! يا ليلْ ! يا ليلْ ! ما تِنجلي يا ليلْ !

* * *

إن قلت أنا فرْحان دا مِينْ يكدِّبْني
واكتَر من السُّلطانْ فرحانْ أنا بآبْني

* * *

بِين السُّيوف يا ناس ! لَم انْكَسر سيفي
وآبن الغِنى مِخْتاس وأَنا على كيفي
يا ليلْ ! يا ليلْ ! يا ليلْ ! ما تِنْجِلي يا ليلْ !

* * *

وآبن الغِنى فِ هْمُوم والخالي خالي البال
والفقْر ما بيْدوم وتدُوم هموم المال

* * *

يا طير ! يا طِير ! يا طير ! الحُر فُوقِ اللُّوم
والخِير ، جميع الخِير لقْمَة ، وعافْيَة ، ونوم
يا ليلْ ! يا ليلْ ! يا ليلْ ! ما تِنْجِلي يا ليل !

* * *

ولم تختر الأقدارُ إلا زبالاً ترسِلُ في لسانه سخريَّتَها بذلك الباشا ، وبنت ذلك الباشا . . . !.

وكسرُ قلبٍ بكسرِ قلبِ وحَطمُ نفْسٍ بحطم نفْسِ
ورُبَّ عِزٍّ تراه أمسىٰ كناسَةً هُيِّئتْ لِكنسِ . . . !

* * *